

## بداية النظر في العقيدة في الاسلام

الدكتور يحيى هاشم

المدرس بكلية اصول الدين بالازهر، القاهرة

بدأ النظر العقدي في أصول الدين ببداية نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، و تشعبت مجالاته :

- ١ - ما بين طلاب الهداية من المقبلين على الاسلام .
  - ٢ - واصحاب العناد والتكبر من المشركين : (ا) مستقلين بمنهجهم (ب) أو متحالفين مع أهل الكتاب .
  - (٣) و أصحاب الجدل : (ا) من اليهود (ب) أو من المسيحيين .
  - (٤) و أصحاب التطلع والتساؤل من المسلمين .
- ففي المجال الاول يجد الباحث نموذجين :

أولهما نموذج أم المؤمنين خديجة رضی الله عنها التي صدقت بما جاء به الرسول الامين صلى الله عليه وسلم — طبقا لما رواه الشيخان في حديث بدء الوحي - عن نظر .

يدل على ذلك قولها له بعد أن حدثها بنزول الوحي عليه وحشيتها على نفسه  
”كلا و الله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم و تحمل الكل و تكسب  
المعذوم و تقرى الضيف و تعين على نوائب الحق . . .“

و هذا يعنى - فى تقديرى - أنه لما كان صادقاً مستقيماً على الحق والخير، كان بحيث لا يخزيه الله أبداً، فهو الصادق، وهو - تر تيباً على ذلك - المصدوق .

و هذا النظر الأصيل البسيط، يمثل نهج السابقين الأولين فى إيمانهم بالدعوة الجديدة، و بخاصة أولئك الذين لا ينتتمون الى أهل الكتاب .

و ثانى هذين النموذجين : نموذج ورقة بن نوفل : الذى صدق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لانه يتفق مع ما بين يديه من العلم و ذلك إذ يقول له ”هذا الذى جاءك هو الناسوس الذى أنزل الله على موسى . . .“

و هذا النظر: يمثل نهج الذين لديهم علم من أهل الكتاب ممن أقبلوا على الدين الجديد باخلاص و ثبات .

وفى مجال المشركين المعاندين تدلنا الروايات على نوع الإنكار الذى قابلوا به الدعوة، كما تدلنا على الموقف الذى اتخذته الرسول صلى الله عليه وسلم منهم .

لقد اجتمع نفر من رؤساء قريش عن ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه و خاصّموه حتى تعذروا به، فبعثوا إليه أن أشرف قوسك قد اجتمعوا اليك ليكلّموك فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدأ فى أمره بداء . . .، و كان عليهم حريصاً يحب رشدهم و يعز عليه عنّتهم . و تدل القصة التى أوردها ابن كثير فى تفسيره - كذلك الواحدى فى أسباب النزول - على أنهم أداروا معه الحديث بعد إذ جاء اليهم حول ما يظنونه هدفاً له فى دعواه: أهو الرغبة فى المال؟ أم هو الرغبة فى الشرف و السيادة و الملك؟ و عرضوا عليه فى ذلك عروضاً دنيوية، لينصرف عن دعوته، ثم انتقلوا الى الطعن فى سلامة عقله .

و الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرد عليهم فى ذلك بغير تقرير رسالته و تثبيت براءته، و بيان نذيره و بشارته. انصرف عن سوق الحجّة العقلية، كما انصرف عن سوق الحجّة المادية ”المعجزة الحسية“، التى يطلبونها . . .

يقول ابن كثير معقبا ”و هذا المجلس الذى اجتمع له هؤلاء لو علم الله أنهم يسألون ذلك استرشادا لاجبوا اليه، و لكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا و عنادا . . .“

ويذكر ابن كثير - فى تفسيره و تاريخه . . . - قصة أخرى : كان فيها سفير القوم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة، اذ سمع شيئا من القرآن فرجع يقول ”انى سمعت قولا و الله ما سمعت مثله قط . . ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة“، و فى هذه القصة تتبين للباحث عناصر كثيرة من جدل الجاهلية : ففيها التطلع الى بريق الحياة الاجتماعية، و فيها التأثر بالبيئة التى تتوقع تسلط الجن، و فيها الالتفات الى حاجة المجتمع الى الوحدة، و فيها الوقوع تحت حدة الاحساس بالتنافس القبلى، و فيها الاعتماد على مالسلف من مكانة عندهم تقضى باتباعهم و السير على سنهابهم .

وهى على وجه العموم يظهر فيها ذلك العناد الذى نلمسه فى القصة الاولى، و إن كان قد بدا و قد اهتزت قوائمه تحت تأثير المعجزة القرآنية .

و ينتقل المشركون خطوة فى نظرهم العنادى، اذ يتحالفون مع أهل الكتاب فى صنع الجدل للرسول صلى الله عليه وسلم .

يتبين ذلك سما يرويه ابن كثير فى تفسيره، و ابن هشام فى سيرته، والواحدى

فى أسباب النزول :

تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون"، . فبلغ ذلك عبد الله بن الزبيرى - من اليهود أسلم بعد فتح مكة - فقال للمشركين : سلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود نعبد عزيزا، و النصرارى نعبد عيسى بن مريم . . . فظن المشركون أنه احتج و خاصم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده . . ."، و نزل قوله تعالى "ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . . ." (القلم: ١٠١) و إذ كان هذا نوعا من تلمذة المشركين على أهل الكتاب فى الجدل، فقد وردت أمثلة أخرى تبين اقتباسهم منهم، و ذلك اذ كانوا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم أسئلة أوردها أهل الكتاب أيضا : يقولون : هذا الإله الذى تدعو إليه ما هو؟ من ذهب هو أم من فضة؟ و يسألون : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ و يسألون عن القدر كذلك .

و فى مجال أصحاب الجدل من اليهود، تدلنا الروايات و الاخبار على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه أنواعا كثيرة من هذا الجدل، يتنوع فى أسلوبه و موضوعاته :

روى البخارى فى كتاب الاعتصام بسنده عن ابن مسعود قال : كنت مع النبى فى حرت بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم : سلوه عن الروح، و قال بعضهم : لاتسألوه لا يسمعكم ما تكرر هون، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحى ثم قال : "و يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي"، . (اسرى: ٥٨)

و قد كان من دوافع اليهود للمجادلة والانتكار جمودهم على القديم لقدمه، ورفضهم للاستماع الى الدين الجديد مهما يكن من أمره، مع أن هذا الدين الجديد قائم على أسس مقبولة لديهم، فهو ينتمى الى سلة ابراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم انه صادر من نور النبوة التي يتحتم عليهم الايمان بها لو أخلصوا لدينهم حقا. أسام هذا المنطق يرد القرآن بقوله "قل بل سلة ابراهيم حنيفا"، (البقر: ١٣٥) و بقوله "قل آسنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب والأسباط، وما أوتى موسى و عيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فان آمنوا بمثل ما آستم به فقد اهتدوا . . ."، (البقر: ١٣٧) و يذكر ابن هشام أسماء الذين كانوا يتعنتون من هؤلاء في جدالهم للرسول صلى الله عليه وسلم، و هم كثيرون، تستغرق كتابة أسمائهم أكثر من صفحتين فى سيرته.

و اذا كانت هذه من بداية الجدل بين المسلمين والمسيحيين، فقد كانت المباهلة تمثل خاتمة هذا الجدل مع المعاندين منهم، وقد جاء فى خبر هذه المباهلة حديث الرسول إليهم حول الطبيعة البشرية للمسيح، من ولادة، و أكل و شرب، و موت، و استدلاله بذلك على فساد عقيدتهم فيه .

و اذا كانت هذه الأخبار التى سقناها لما يمكن أن نسميه حوارا بين الرسول صلى الله عليه وسلم و أرباب الديانات الأخرى اقتضتها ضرورة الدعوة إلى الدين الجديد، فان هناك من الأخبار ما يدل على اتجاه بعض الصحابة الى اجراء نوع من هذا الحوار بينهم و بين أهل الكتاب .

جادلهم عمر رضى الله عنه فى استناعهم عن التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لمجرد أن الوحي الذى يأتيه ينزل به جبريل عليه السلام، و هو فى

اعتقادهم عدو لهم، وقد كانوا يذكرون أنه لو كان الذي يأتيه بالوحي سيكأيل لآمنوا . . .

و اذا كانت ضرورة الدعوة تقتضى من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجرى مع أهل الكتاب نوعا من الحوار أو الجدل، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يقبل أن يتطور الامر الى الجلوس اليهم والخذعنهم فيما وافق الاسلام، فهذا سالا تقتضيه ضرورة، ولا تدعو اليه حاجة .

فاذا انتقل الامر بالمسلمين الى استعمال الجدل فيما بينهم فى مسائل يكفيهم فيها الوقوف عند ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان عليه الصلاة والسلام يغضب لذلك غضبا شديدا .

روى الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير بسنده عن عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال "اذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سى الله فاحذرهم"، .

والأخبار التى تدور حول هذا المعنى كثيرة تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينبه المسلمين الى أن دواعى الجدل ليست متوفرة لديهم فهم — كما يقول لهم فى بعض الروايات — فى "وضوح النهار"، هم فى فترة حياتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فى مرحلة النقاء والصفاء، وصادر الوحي قائم بين ظهرانئهم يرجعون اليه متى يشاءون، فاذا لجأوا الى الجدل كانوا متعمدين لايقاع التنازع بين جماعة المسلمين و اذا كان من بعدهم سيتعرضون لبلاء الفتنة بالجدل، فانها الفتنة التى ينبغى ألا يصنعوها بانفسهم، هى الفتنة التى اذا طرأت عليهم كان لهم أن يواجهوها فى حينها، وأن يواجهوها بمثل ما كان الرسول

يواجه به جماعات المشركين و أهل الكتاب، لكنهم قبل ذلك لا يكون لهم في الأمر معذرة، ولا يكون لهم فيه مدعاة غير مدعاة المراء وهو كربه و خيم العاقبة . . . .

و إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى جماعة من أصحابه عن ممارسة الجدل فيما بينهم لغير حاجة غير داعى المراء، فإنه ما كان ليعرض عن اجابة المتوجه اليه بالسؤال مخلصا في سؤاله، شاعرا بالحاجة النفسية الحقيقية، الحاجة الى طمأنينة القلب .

من هذا القبيل ما رواه البخارى في صحيحه في كتاب بدء الخلق عن ناس من أهل اليمن سألوا الرسول اذ قالوا ”جئناك نسألك عن هذا الأمر“، قال : كان الله ولم يكن شىء غيره، و كان عرشه على الماء، و كتب في الذكر كل شىء و خلق السماوات والارض . . .

و منه ما رواه ”قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال : نعم . قيل : فقيم يعمل العاملون ؟ قال : كل سيسر لما خلق له“ .

و يقول الاسام الرازى في كتابه أساس التقديس ”اعلم أنه قد اشتهر فى التفسير أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ماهية ربه و عن نعتة و صفته فانتظر الجواب من الله فانزل الله تعالى سورة الاخلاص .

و لقد أورد ابن قيم الجوزية فى كتابه زاد المعاد حديثا طويلا فى قدوم و قد بنى المنتفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء فيه سؤالهم اياه عن : الغيب، والبعث، ورؤية الله، و أوصاف الجنة والنار . . .

ولقد كان من جواب الرسول لهم عن البعث كيف يكون بعد ما تمزقنا

الرياح و البلى و السباع ؟ قوله للسائل :

أنيك بمثل ذلك في آلاء الله، الأرض أشرفت عليها وهي في مدرة بالية، ثم أرسل الله عليها السماء، فلم تلبث عليك الا أياسا حتى أشرفت عليها وهي شربة واحدة، ولعمر الهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض . .

هذا ولقد كان لحديث جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم . رواه ابن كثير في البداية والنهاية، و أبونعيم في معرفة الصحابة — و بين وفد من الأزد فضل استدلالنا على تصنيف سبكر لحقائق الدين الحنيف، ورد في سؤال الرسول لهم : ان لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم و ايمانكم، قالوا : خمس عشرة خصلة . . الخ . ولقد يظهر لنا أن هذه الخصال قد قسموها إلى : عقائد، و عبادات، و أخلاق و تديير الدنيا بالدين .

سما تقدم يمكننا القول ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه الاسئلة من المشركين، و من أهل الكتاب، و من المسلمين .

و كان يجيب عليها اذا لم تظهر عليها سمة العناد والمراء . و كانت تتناول أدق المسائل الالهية .

ولم يكن يمنع البحث في هذه الاسور باطلاق، و انما كان يمنعه في صورة الجدل الذي يتجاهل دواعي الايمان، ولا تتوافر له دواعي الحاجة النفسية الحقيقية .

و كان بالمسلمين رغبة في السؤال و تحرج منه سعا، يعنفهم من شقته، الاسئلة التعليمية التي كان ينزل بها جبريل، والاسئلة التي كانت تحضر بها الوفود .



يقرر ابن قيم الجوزية - في كتابه زاد المعاد - أن الصحابة كانوا يخوضون مع الرسول صلى الله عليه وسلم في دقائق المسائل، و يتفهمون عنه حقائق الايمان ، ولا يقتصرون على مسائل العمل، و يقول ” . . . و كانوا يوردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكل عليهم من الاسئلة والشبهات، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم، و قد أورد عليه الاسئلة أعداؤه و أصحابه، أعداؤه للتعنّت و المغالبة، و أصحابه للفهم و البيان، وهو يجيب كلا عن سؤاله، الا ما لاجواب عنه كسؤال عن وقت الساعة . . .“

و ليس أدل على أن البيئة الاسلامية كانت في ذلك الوقت - و بخاصة بعد أن دانت للرسول صلى الله عليه وسلم أجزاء الجزيرة العربية و أنحاءها المختلفة - تزاول نشاطا فكريا حول العقيدة الاسلامية، من حركة الردة التي أطلت بوجهها البشع على أرض الجزيرة العربية اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، و إنه سهما يكن من أسبابها فلا أظن أن خلافا يقع في أن نفوس الغالبية العظمى ممن قاموا بها لم تكن قد تشربت العقيدة الاسلامية في قليل أو كثير، و كان يخفى تحت الهمسة من اظهارهم للاسلام ميراث عقائدهم و أهوائهم القديمة .

